النفحة الرابعة: رَمَضَانَ شهر القرآن

يـقـول اللهُ تـعـالـى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة: 185].

أيها الصائمون الكرام:

لقد اختار اللهُ سبحانه وتعالى شهر رَمَضَانَ من بين سائر الشهور بإنزال القرآن فيه، ولهذه الخاصية كان جبريل يعارض النبي ﷺ القرآن في رَمَضَانَ كل سنة مرة، فلما كان العام الذي توفِّي فيه عارضه مرتين، ولقد قرن النبي ﷺ بين الصيام والقرآن فقال ﷺ: «**الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام أي رب منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن منعته النوم بالليل فشفعني فيه فيشفعان**»[1].

ولتلاوة القرآن فضل عظيم وثواب كبير، ويظهر هذا من تضافر نصوص كثيرة تبين هذا الفضل، ففي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران**»[2]، أي أجر على التلاوة وأجر على مشقة القراءة على صاحبها، فكم هو رفيع مقام الذي يحسن ويجيد تلاوة كتاب اللهُ تعالى، وكم هي صحبته كريمة، إنه يوم القيامة مع السفرة الكرام البررة إنهم ملائكة الرحمٰن، ومعهم يكرم الماهر بالقرآن.

---

(1) رواه أحمد في المسند، 2/ 174، رقم: (6626)، والحاكم في المستدرك، 1/ 740، رقم: (2036).

(2) رواه البخاري، 6/ 2743، رقم: (7104)، ومسلم، 1/ 549، رقم: (798).

واعلم أخي المسلم:

أنك كلما أكثرت من تلاوة القرآن كان لك نصيب وافر من شفاعته يوم القيامة، قال ﷺ: «**اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه**»[1] ثم إن القرآن لا يشفع لك فحسب بل إنه يقف ليدافع عنك في أهوال يوم الزحام، يقول النبي ﷺ: «**يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا، تقدمه سورة البقرة وآل عمران، تحاجان عن صاحبهما**»[2].

ويؤكد الحبيب ﷺ على فضل تلاوة القرآن فيقول: «**يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها**»[3] ويقول: «**مَن قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، فلا أقول: ألم حرف، ولكن أقول ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**»[4].

فتصوَّر نفسك أيها القارئ الكريم عندما يناديك المنادي، أنت وأمثالك من قرّاء القرآن ويقال لكم: اقرؤوا وارتقوا، وأبصار الناس ترمقكم، وأعناقهم تشرأبّ إليكم وأنتم في موكب الرحمن ترتقون، وعلى طبق القرآن تتألقون، وصدق النبي ﷺ عندما قال: «**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين**»[5] وهذه الرفعة تكون في الدنيا والآخرة.

وأنت أيها الأخ الصائم المفضال:

في شهر رَمَضَانَ شهر القرآن لا شك أنك تكثر من تلاوة القرآن آناء الليل

---

(1) رواه أحمد في المسند، 5/ 254، رقم: (22247)، ومسند الشهاب، 2/ 257، رقم: (1310)، وغيرهما.

(2) رواه مسلم، 1/ 554، رقم: (805)، والترمذي، 5/ 160، رقم: (2883)، ومسند الشاميين، 2/ 320، رقم: (1418).

(3) رواه الترمذي، 5/ 177، رقم: (2914)، وقال: حديث حسن صحيح، وأبو داود، 2/ 73، رقم: (1464).

(4) رواه الترمذي، 5/ 175، رقم: (2910)، وقال: حديث حسن صحيح.

(5) رواه مسلم، 1/ 559، رقم: (817)، وابن ماجه، 1/ 79، رقم: (218).

وأطراف النهار، ولكن فلتكن أكثر قراءتك في بيت الله مع الكوكبة النيرة من المصلين الذين جعلوا القرآن مأدبتهم، فتحلقوا حوله وانتفحوا بنفحاته وفي مثل هؤلاء يقول ﷺ: **«ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلّا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده»**(1).

رحمة وسكينة ومغفرة كلها لقرّاء القرآن، الذين يتلون هذا الكتاب بوعي لجلالة آياته، وقدسية سامية لإرشاداته، ويكيفون أنفسهم مع نفحاته ليزدادوا قرباً من الله جل في علاه، وبسبب هذه المعاني العظيمة، كان السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين، إذا دخل عليهم رَمَضَانَ فإنما هو لتلاوة القرآن، بهمة عالية ولهفة قلبية إليه عارمة، وخشوع لكلماته، وخضوع لأوامره، يقول النبي ﷺ: **«إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا مأدبته ما استطعتم، هذا القرآن حبل الله المتين والنور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه، لا يزيغ فيستعتب، ولا يعوج فيقوّم، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الترداد، اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات»**(2).

ولقد ورد أن الأئمة الأربعة وغيرهم من سلف هذه الأمة، كانوا يختمون القرآن مرتين في كل يوم من رَمَضَانَ، يقول عبد الله بن المبارك: أربعة من الأئمة ختموا القرآن في ركعتين: عثمان بن عفان، وتميم الداري، وسعيد بن جبير، وأبو حنيفة النعمان.

وقال أيضاً: كانوا يستحبون أن يختم في أيام الصيف في أول النهار، وفي أيام الشتاء في أول الليل، حتى تكون الصلاة عليهم أكثر.

وكان سفيان الثوري رضي الله عنه، إذا دخل رَمَضَانَ ترك جميع العبادة، وأقبل على قراءة القرآن، وكان مالك بن أنس رضي الله عنه، إذا دخل رَمَضَانَ يفر من مذاكرة الحديث

(1) رواه مسلم، 4/ 2074، رقم: (2699)، وابن حبان، 3/ 45، رقم: (768).

(2) رواه الحاكم في المستدرك، 1/ 741، رقم: (2040)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.

ومجالسة أهل العلم، ويقبل على القراءة في المصحف، وحفظ عن أبي حنيفة النعمان أنه ختم القرآن في الموضع الذي توفي فيه سبعة آلاف مرة، وفي شرح مسلم للإمام النووي، أن عبد الله بن إدريس الكوفي، قال لابنته حين بكت عند حضور موته: لا تبكي فقد ختمت القرآن في هذا البيت أربعة آلاف ختمة.

الله أكبر هل هذا الكلام أسطورة من أساطير الزمان؟ هل هو حكاية من حكايات كان يا ما كان؟ لا وألف لا، بل هو واقع عاشه أولئك الأطهار، وحقيقة عرفها زمن أولئك الأخيار، عاشوا في رَمَضَانَ وفي غيره حياة السعداء، حياة من تذوق حلاوة الإيمان وطعم الإخلاص، ولذة المناداة، ونشوة المناجاة، إذا مروا بآية نعيم وكأنهم في النعيم يرتعون، وفي رياضه يتمتَّعون، وإذا مروا بآية جحيم خشعت أبصارهم، وسكبت عبراتهم وسمع لهم خنين وأزيز كأزيز المرجل... جعلوا القرآن غذاء قلوبهم، وقرَّة نفوسهم، طبقوا أحكامه، أقاموا حدوده، فكانوا بحق مؤهَّلين لحمل رسالة القرآن والإيمان.

وإن من إكرام الله ﷻ لنا أن حبانا بفضل القرآن العميم، الذي أخرجنا الله به من الظلمات إلى النور، ومن عبادة الأوثان والأصنام والأحجار والأشجار إلى عبادة رب العباد، ومن التنافر والتقارع المقيتين إلى الوحدة والتماسك، ومن أساطير الأولين والآخرين، وعقائدهم الفاسدة وتصوراتهم المتهافتة، وقوانينهم الجائرة، إلى ربوع الحق واليقين، قال تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ①﴾ [إبراهيم: 1].

يقول صاحب الظلال رحمه الله: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، لتخرج هذه البشرية من الظلمات، ظلمات الوهم والخرافة، وظلمات الأوضاع والتقاليد، وظلمات الحيرة في تيه الأرباب المتفرقة، وفي اضطراب التصورات والقيم والموازين، لتخرج البشرية من هذه الظلمات كلها إلى النور، النور الذي يكشف هذه الظلمات، يكشفها في عالم الضمير وفي دنيا التفكير، ثم يكشفها في واقع الحياة والقيم والأوضاع والتقاليد، وإن وراء هذا التعبير القصير ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ لآفاقاً بعيدة لحقائق ضخمة عميقة في عالم العقل

والقلب، وفي عالم الحياة والواقع، لا يبلغها التعبير البشري، ولكنه يشير، وليس في قدرة الرسول ﷺ إلّا البلاغ، وليس من وظيفته إلّا البيان، أما إخراج الناس من الظلمات إلى النور فإنما يتحقق بإذن الله، وفق سننه التي ارتضتها مشيئته، وما الرسول إلّا رسول)[1].

وفي موضع آخر يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: 48].

ما أقواه من تصريح قرآني قاطع، فلا داعي لمؤمن أن يعود إلى الكتب السماوية السابقة مفتشاً عن طريق الحق والنور، فالنور التام والحق واليقين، والهداية الربانية المطلقة هي في هذا القرآن العظيم، الذي هيمن على الكتب السابقة، ونسخ الشرائع السالفة، خاصة وأن تلك الكتب قد تلوثت وتحرفت بيد العابثين.

لا داعي للعودة إلى تلك الكتب لأنها تحرفت، وهذا القرآن محفوظ برعاية الله وصون السماء.

لا داعي للعودة إلى تلك الكتب، لأن هذا الكتاب فيه من نور الله ما يكسب قارئه إشراقة في النفس، وضياء في الوجه، فيرى سبيله مستنيراً في سلوكه إلى الله، لا يشوبه غبش، ولا يحجبه ضلال أو ضباب، سواء كان غبش الأوهام والشهوات، أم ضباب الأطماع والخرافات.

لا داعي للعودة إلى تلك الكتب، لأن هذا الكتاب ليس مجرد عقيدة رهبانية تغمر القلب والضمير بالنور والروح، إنما هو مع ذلك منهج حياة قائم على أساس الولاء والعبودية للّه تعالى، والتفلت من حاكمية العبيد والطواغيت.

---

(1) في ظلال القرآن، 4/ 2086.

وعندما ترنّح المشركون علواً واستكباراً وطالبوا محمداً بمعجزات مادية محسوسة كي يؤمنوا به فقالوا: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ [العنكبوت: 50]، فيسترعي الحق انتباههم إلى عظمة القرآن فيقول: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: 51].

يا قرّاء القرآن يا صائمون:

إن الكتاب الذي تقرؤون لا يهدف إلى الترنم والتسلية به ولا إلى التنافس في إخراج الحروف من مخارجها بشكل تام، ولا إلى تزيين الأرفف والمكتبات به، ولا للتمتمة به على القبور والأضرحة والأموات، إنما هو لإحياء القلوب الميتة، وتهذيب النفوس الخربة، وتحويله إلى دستور دولي، وشريعة عالمية، وإلى حياة تنظم سلوك الأفراد، ومسار المجتمعات، سواء على صعيد الأخلاق والقيم والمثل، أم على صعيد القوانين والتشاريع، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: 24].

نعم إنها دعوة قرآنية إلى حياة كلها عز وعظمة وافتخار، عز يوم يتحرر الإنسان من ربقة الجهل والخرافات، وأسباب القهر والخنوع لغير الله، وعظمة يوم يتفلت الإنسان من قيود الهوى والتبعية العمياء، لمناهج البشر وحاكميتهم الضالة التي تغرزها أصنام الأثرة في نفوسهم، والتفيؤ بحاكمية الله وسلطانه وحده في أرجاء المعمورة، وافتخار يوم يستجيب الإنسان لقرآن السماء فيحيا حياة الأحرار، حياة فيها منهج رباني متكامل، تجد الحياة ذاتها سعادتها وارتقائها وبهجتها في ظله، لأنها اكتسبت نضارتها من منهج السماء.

وفي نفس السياق يبرز لنا الحق ﷻ، أن القرآن يفجر في قلوب قارئيه ومطبّقيه طاقات الهدى والخير، ويحوّل مسار حياتهم إلى أرقى مسار، إلى سبيل الاستقامة والطهر والعفاف والأمانة والصدق والاستكانة للّه تعالى، قال ربنا ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً

﴿لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فَاطِر: 29، 30].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السَّجدَة: 15، 16].

ما أجملها من صفات، وما أجلَّها من سمات، إنها صفات مضيئة جعلها الله تاجاً على رؤوس قرّاء القرآن، إنها صفات تنبثق كلها من جلال القرآن ليكتب أتباعه ظلاً من جلالها وهيبتها، إنها صفات لم تأت عبثاً، إنما كانت ثمرة يانعة حوّلت سلوك الأطهار إلى أرفع سلوك بسبب حبهم وتطبيقهم لكلام الله تعالى، وهذا الذي أورثهم تجارة لن تبور، تجارة فيها ربح وكسب مضمون، لأنها تجارة مع الله تعالى.

أيهـــا الأحبــاب:

وكلام الله إذا لامس قلباً حياً، ونفساً توّاقة إلى الخير والفلاح، فإن نوره يتمكّن من كل خلية من خلايا جسم الإنسان، ويساور كل نفحة من نفحات روحه، فيشعر المؤمن بالوجل والخشوع، والرهبة والارتعاش حتى تقشعر منه جلود المؤمنين بسبب تفاعلها مع إيحاءاته، وانسجامها مع ومضاته، ثم تلين وتهدأ وتأنس لكلام الله، يقول ربنا ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزُّمَر: 23].

يقول ابن كثير رحمه الله تعالى: (هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: 23] (لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه:

أحدها: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نغمات الأبيات من أصوات القينات.

الثاني: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمٰن خروا سجداً وبكياً، بأدب وخشية ورجاء ومحبة وفهم وعلم... أي لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها بل مصغين إليها فاهمين بصيرين بمعانيها، فلهذا إنما يعملون بها ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم، أي يرون غيرهم قد سجد فيسجدون تبعا له.

الثالث: أنهم يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة ﭬ عند سماعهم كلام الله تعالى، من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله، ولم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون بما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك، ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة)[1].

بل إن المخلوقات الأخرى تتأثر بسماع القرآن، وأقرب مثال على ذلك صورة الجبل الخاشع الذي خشع لكتاب الله كما قال مولانا: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: 21].

وفي البخاري عن أسيد بن حضير قال: (بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة، وفرسه مربوط عنده إذ جالت الفرس فسكت فسكتت، فقرأ فجالت الفرس فسكت وسكتت الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف، وكان ابنه يحيى قريباً منها فأشفق أن تصيبه، فلما اجتره رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدَّث النبي ﷺ فقال: **«اقرأ يا ابن حضير اقرأ يا ابن حضير»**، قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريباً فرفعت رأسي فانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء

(1) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، 6/ 258.

فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها، قال: «**وتدري ما ذاك**»، قال: لا، قال: «**تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم**»(1).

وعند مسلم في صحيحه من حديث البراء قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوطة بشطنين ـ أي بحبلين شديدين ـ فتغشته سحابة فجعلت تدور وتدنو وجعل فرسه ينفر منها، فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال: «**تلك السكينة تنزلت للقرآن**»(2).

والقرآن الكريم يحدثنا عن نفر من الجن سمعوا القرآن، فتجاوبت معه أفئدتهم، وتفاعلت معه عواطفهم وعقولهم، فأعلنوا إيمانهم بهذا القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجن: 1، 2] وعنهم قال مولانا تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف: 29] ولكن الجن عندما سمعوا القرآن لم يقبعوا في بيوتهم للرهبنة وحصر القرآن في بيوتهم، إنما انطلقوا لهداية أقوامهم به، وترغيبهم بالحياة الطيبة السعيدة إن اتبعوه، وإنذارهم من حياة الضنك والشقاء وسخط الله ومقته، إن هم أعرضوا عنه ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

أيها الصائمون:

لقد بث رسولنا ﷺ شكواه إلى ربه تعالى بسبب إعراض قومه عن القرآن فقال: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان: 30].

فماذا نقول لرسول الله ﷺ إن سأل عن سبب هجرنا للقرآن، إننا هجرنا القرآن هجراً غير جميل، فكم من المسلمين قد صمّوا الآذان عن سماع آياته؟

(1) رواه البخاري، 4/ 1916، رقم: (4730).

(2) رواه مسلم، 1/ 547، رقم: (795).

وكم من المسلمين يحكِّمون شريعة الطاغوت وقوانين البشر، ويجعلون شريعة القرآن وراءهم ظهرياً؟

وكم من المسلمين يرمقون النصر، ويفتشون عن أسبابه في محاريب أوروبا وخانات أمريكا، ويقفلون القلوب والأبصار عن كلام رب الأرباب؟

إن القرآن هو سبب العزة والنصر والتمكين، ولن يصلح حال الأمة اليوم إلّا بالقرآن كما صلح حال سلفها، وإن هذا الكتاب الذي صنع خالداً ومعاذاً وعلياً والقعقاع، هو ذاته الذي يصنع الرجال العظماء اليوم، الذين يغيرون منحنيات التاريخ، ويقوِّمون اعوجاجه. . .

فإلى القرآن يا أمة القرآن، تلاوة وحفظاً وعملاً وتحكيماً ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء: 10].

مـن يـرد مـلـكَ الـجـنـان	فـلـيـدع عـنـه الـتـوانـي
ولـيـقـم فـي ظـلـمـة الـلـيـل	إلـى نـور الـقـرآن
ولـيـصـل صـومـاً بـصـوم	إن هـذا الـعـيـش فـانـي
إنـمـا الـعـيـش جـوار الـلّـه	فـي دار الأمـان

أخرج الإمام أحمد في مسنده من حديث عبد الله ابن بريدة مرفوعاً قال: (كنت جالساً عند النبي ﷺ فسمعته يقول: **«تعلموا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة»**، قال: ثم مكث ساعة ثم قال: **«تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان يظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان، أو فرقان من طير صواف، وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول له: هل تعرفني فيقول: ما أعرفك فيقول له: هل تعرفني فيقول ما أعرفك، فيقول أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر، وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة، فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا، فيقولان بم كسينا هذه فيقال: بأخذ ولدكما القرآن،**

ثم يقال له: اقرأ واصعد في درجة الجنة وغرفها، فهو في صعود ما دام يقرأ هذا كان أو ترتيلاً»[1].

قال أحمد بن أبي الحواري: (إني لأقرأ القرآن وأنظر فيه آية آية، فيحير عقلي بها وأعجب من حفاظ القرآن كيف يهنيهم النوم، ويسعهم أن يشتغلوا بشيء من الدنيا وهم يتلون كلام الله؟ أما إنهم لو فهموا ما يتلون وعرفوا حقه، وتلذذوا به واستحلوا المناجاة به، لذهب عنهم النوم فرحاً بما قد رزقوا)[2]

منع القرآن بوعده ووعيده ... مقل العيون بليلها لا تهجع
فهموا عن الملكِ العظيم كلامه ... فهماً تذل له الرقاب وتخضع

هذا يا عباد الله شهر رمضان، الذي أنزل فيه القرآن، وهذا كتاب الله يتلى فيه بين أظهركم ويسمع، وهو القرآن الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً يتصدع، ومع هذا فلا قلب يخشع، ولا عين تدمع، ولا صيام يصان عن الحرام فينفع، ولا قيام استقام فيرجى في صاحبه أن يشفع، قلوب خلت من التقوى فهي خراب بلقع، وتراكمت عليها ظلمة الذنوب فهي لا تبصر ولا تسمع، كم تتلى علينا آيات القرآن وقلوبنا كالحجارة أو أشد قسوة، وكم يتوالى علينا شهر رمضان وحالنا فيه كحال أهل الشقوة، لا الشاب منا ينتهي من الصبوة، ولا الشيخ ينزجر عن القبيح فيلتحق بالصفوة، أين نحن من قوم إذا سمعوا داعي الله أجابوا الدعوة، وإذا تليت عليهم آيات الله جلت قلوبهم جلوة، وإذا صاموا صامت منهم الألسنة والأسماع والأبصار، أفما لنا فيهم أسوة؟ كم بيننا وبين حال أهل الصّفا، أبعد مما بيننا وبين الصفا والمروة، كلما حسنت منا الأقوال ساءت الأعمال، فلا حول ولا قوة إلّا باللّه العلي العظيم وحسبنا الله.

---

(1) مسند أحمد 5/ 348، رقم: (23000)، وابن ماجه، 2/ 1242، رقم: (3781)، والدارمي، 2/ 543، رقم: (3391).

(2) لطائف المعارف، لابن رجب الحنبلي ص321.